أبو أيوب الأنصارى

- انفِروا خِفافًا وثِقالًا -

كان الرسول عليه السلام يدخل المدينة مختتمًا بمدخله هذا رحلة هجرته الظافرة، ومستهلًا أيامه المباركة فى دار الهجرة التى ادَّخر القدر لها ما لم يدخره لمثلها فى دنيا الناس..

وسار الرسول وسط الجموع التى اضطرمَت صفوفُها وأفئدتها حماسةً، ومحبة، وشوقًا.. ممتطيًا ظهر ناقته التى تزاحَمَ الناس حول زمامها، كُلٌّ يريد أن يستضيف رسول الله..

وبلغ الموكب دور بنى سالم بن عوف، فاعترضوا طريق الناقة قائلين: «يا رسول الله، أقم عندنا، فلدينا العدَد، والعُدة، والمنعة»..

ويجيبهم الرسول وقد قبضوا بأيديهم على زمام الناقة:

«خَلُّوا سبيلها، فإنها مأمورة».

ويبلغ الموكب دور بنى بيَاضة، فَحىَّ بنى ساعدة، فَحىَّ بنى الحارث بن الخزرَج، فَحَىَّ بنى عدىّ بن النجار.. وكل بنى قبيل من هؤلاء يعترض سبيل الناقة، مُلِحين أن يُسعدهم النبى عليه الصلاة والسلام بالنزول فى دُورِهم. والنبى يُجيبهم وعلى شفتيه ابتسامة شاكرة:

«خَلُّوا سبيلها، فإنها مَأمورة».

لقد ترك النبى للمقادير اختيارِ مكان نزوله حيث سيكون لهذا المنزل خطره وجلاله.. ففوق أرضه سينهض المسجد الذى تنطلق منه إلى الدنيا بأسرها كلمات الله ونوره.. وإلى جواره ستقوم حجرة أو حُجُرات من طين وطُوب.. ليس بها من مَتاع الدنيا سوى كَفاف، أو أطيافِ كَفاف!! سيَسكُنها مُعلم، ورسول جاء الحياة لينفخ فى روحها الهامد. وليمنح كل شَرَفِها وسلامها للذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا.. للذين آمنوا ولم يَلبِسُوا إيمانهم بظُلم.. للذين أخلَصُوا دينهم لله.. للذين يُصْلحون فى الأرض ولا يُفسدون.

أجَل.. كان الرسول عليه السلام ممعنًا فى ترك هذا الاختيار للقدَر الذى يقود خُطاه..

من أجل هذا، ترك هو أيضًا زِمام ناقته وأرسله، فلا هو يَثْنى به عُنقها ولا يستوقف خُطاها.. وتوجَّه إلى الله بقلبه، وابْتَهل إليه بلسانه:

«اللهم خِرْ لى، واخترْ لى»..

وأمام دار «بنى مالك بن النجار» بركَت الناقة.. ثم نهضت وَطوَّفت بالمكان، ثم عادت إلى مَبرَكِها الأوَّل، وألقَتْ جِرَانَها. واستقرَّت فى مكانها ونزل الرسول عنها متفائلا مُستبشرًا.

وتقدم أحد المسلمين وقد تبلّج وجههُ فَرَحًا وغِبطة.. تقدم فحمل الرَّحْلَ، وأدْخله بيته ثم دعا الرسول للدُّخُول.. وتَبِعَه رسول الله يَحُفُّ به اليُمنُ والبركة..

أتدرون مَن كان هذا السعيد الموعود الذى بركت الناقة أمام داره، وصَار الرسول ضيفَه، ووقف أهل المدينة جميعًا يغبطونه على حظوظه الوافية..؟؟

إنه بَطَلُ حديثنا هذا.. أبو أيوب الأنصارى - خالد بن زيد، حفيد مالك بن النجَّار.

* * *

لم يكن هذا أول لقاء لأبى أيوب مع رسول الله..

فمن قبل، وحين خرج وفد المدينة لمبايعة الرسول فى مكة تلك البيعة المباركة المعروفة بـ «بيعة العقَبة الثانية».. كان «أبو أيوب الأنصارى» بين السبعِين مُؤمنًا الـذين شدُّوا أيمـانهم على يمـين الرسول مُبايعين، مُناصرين.

والآن، ورسول الله يشرف المدينة، ويتخذها عاصمة لدين الله، فإن الحظوظ الوافية لأبى أيوب جعلت من داره أول دار يسكُنها المهاجِر العظيم، والرسول الكريم.

ولقد آثر الرسول أن ينزل فى دوْرها الأول.. ولكن ما كاد أبو أيوب يصعد إلى غرفته فى الدور العلوى حتى أخذته الرَّجفة، ولم يستطع أن يتصوّر نفسه قائمًا أو نائمًا، فى مكان أعلَى من المكان الذى يقوم فيه رسول الله وينام..!!

وراح يُلِحُّ على النبى ويرجوه أن ينتقل إلى طابق الدور الأعلى فاستجاب النبى لرجائه.

ولسوف يمكث النبى بها حتى يتمَّ بناء المسجد، وبناء حجرة له بجواره..

ومنذ بدأت قريش تتَنمَّر للإسلام وتشُن إغاراتها على دار

الهجرة بالمدينة، وتُؤلب القبائل، وتُجيش الجيوش لتطفئ نور الله..

منذ تلك البداية، احترف أبو أيوب صناعة الجهاد فى سبيل الله.

ففى بدر، وأُحُد، والخندق، وفى كل المشاهد والمغازى، كان البطلُ هناك بائعًا نفسَه ومالَه لله رب العالمين..

وبعد وفاة الرسول، لم يتخلَّف عن معركة كُتب على المسلمين أن يخوضوها، مهما يَكُن بُعد الشُّقَّة، وفداحة المَشَقَّة..!

وكان شعاره الذى يردده دائمًا، فى ليله ونهاره.. فى جَهْره وإسْراره.. قول الله تعالى:

﴿انفِرُوا خِفافًا وثِقالا﴾..

مرة واحدة.. تخلَّف عن جيش جعل الخليفةُ أميره واحدًا من شباب المسلمين، لم يقتنع أبو أيوب بإمارته.

مرة واحدة لا غير.. ومع هذا فإن النَدَم على موقفه هذا ظلّ يُزلزل نفسه، ويقول:

«ما عَلَىّ مَن استُعمِلَ عَلىّ»..؟؟

ثم لم يفُته بعد ذلك قتال!!

كان حَسبُهُ أن يعيش جنديًّا فى جيش الإسلام، يقاتل تحت رايته، ويذود عن حُرْمته..

ولما وقع الخلاف بين على ومعاوية، وقف مع «علىّ» فى غير تردّد، لأنه الإمام الذى أُعْطِىَ بيعة المسلمين.. ولما استشْهد، وانتهت الخلافة إلى معاوية وقف أبو أيوب بنفسه الزاهدة، الصامدة، التَّقية، لا يرجو من الدنيا سوى أن يظل له مكان فوق أرض الوَغَى، وبين صُفوف المجاهدين..

وهكذا، لم يكد يُبصر جيش الإسلام يتحرك صَوْب القُسطنطينية حتى ركبَ فرسه، وحمل سيفَه، وراح يبحث عن استشهاد عظيم طالما حنَّ إليه واشتاق..!!

وفى هذه المعركة أُصيب.

وذهب قائد الجيش يعوده، وكانت أنفاسُه تسابق أشواقه إلى لقاء الله..

فسأله القائد، وكان «يزيد بن معاوية»:

«ما حاجتك أبا أيوب»:

تُرى، هل فينا من يستطيع أن يتصوَّر، أو يتخيل ماذا كانت حاجة أبى أيوب..؟؟

كلا.. فقد كانت حاجته وهو يجود بروحه شيئًا يُعجز ويُعْيى كل تصوُّر، وكل تخيُّل لبنى الإنسان..!!

لقد طلب من «يزيد»، إذا هو مات أن يحمل جثمانه فوق فرسه، ويمضى به أطول مسافة ممكنة فى أرض العدو، وهنالك يدفنه، ثم يزحف بجيشه على طول هذا الطريق، حتى يسمع وقعَ حوافر خيَل المسلمين فوق قبره، فيُدرِك آنئذ، أنهم قد أدركوا ما يبتغون من نصر وفوز...!

أتحسبون هذا شعرًا..؟

لا.. ولا هو بخيال. بل واقع، وحَقٌّ شهدته الدنيا ذات يوم، ووقفت تحدق بعينيها، وبأذنيها، لا تكاد تصدق ما تسمع وما ترى..!!

ولقد أنجز «يزيد» وصية «أبى أيوب»..

وفى قلب القسطنطينية - وهى اليوم «استامبول» - ثوى جثمان رجل عظيم، جدّ عظيم..!!

وحتى قبل أن يغمر الإسلام تلك البقاع، كان أهل القسطنطينية من الروم، ينظرون إلى «أبى أيوب» فى قبره، نظرتهم إلى قِدِّيس...

وإنَّك لتعجب إذ ترى جميع المؤرخين الذين يسجلون تلك الوقائع يقولون:

«وكان الروم يتعاهدون قبره، ويزورونه.. ويستسقون به إذا قَحِطوا».. !!

* * *

وعلى الرغم من المعارك التى انتظمت حياة أبى أيوب، والتى لم تكن تمهله ليضع سيفه ويستريح، على الرغم من ذلك، فإن حياته كانت هادئة، نديَّة كنسيم الفَجْر..

ذلك أنه سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم حديثًا، فَوعاه:

«إذا صلَّيت فصَلِّ صلاة مُوَدِّع..

«ولا تَكَلّمنَّ بكلام، تعتذر منه..

«والزم اليأس مما فى أيدى الناس»..

وهكذا، لم يخضْ لسانه فى فتنة..

ولم تَهفُ نفسه إلى مطمع..

وقضى حياته فى أشواقِ عابد، وعُزوفِ مُودِّع..

فلما جاء أجلُه، لم يكن له فى طول الدنيا وعَرْضها من حاجة

سوى تلك الأمنية التى تشبه حياته فى بطولتها، وعظمتها:

«اذهبوا بجثمانى بعيدًا.. بعيدًا.. فى أرض الروم ثم ادفنونى هناك».

كان يؤمن بالنصر، وكان يرى بنور بصيرته هذه البقاع، وقد أخذت مكانها بين واحات الإسلام، ودخَلَت مجالَ نوره وضيائه..

ومن ثمَّ أراد أن يكون مَثواه الأخير هناك، فى عاصمة تلك البلاد، حيث ستكون المعركة الأخيرة الفاصلة، وحيث يستطيع تحت ثراه الطيب، أن يُتابع جيوش الإسلام فى زحفها، فيسمع خَفق أعلامها، وصهيلَ خَيلها، ووقْعَ أقدامها، وصلصلة سيوفها..!!

وإنه اليوم لَثاوٍ هناك..

لا يسمع صلصلة السيوف، ولا صهيل الخيل..

فقد قُضى الأمر، واستوت على الجُودِيِّ من أمَدٍ بعيد..

لكنه يسمع كل يوم من صبُحه إلى مَسائه، روعة الأذان المنطلق من المآذنْ المشرَعَة فى الأفُق..

أنْ:

الله أكبر..

الله أكبر..

وتجيب روحه المغتبطة فى دار خُلدها، وسنَا مَجدِها:

* هذا ما وعدَنا اللّهُ ورسولُه *

* وصدَق الله ورسولُه *